السمات العامة للنص القرآني وأثرها في بنية أجزائه
«مراعاة النظائر، بنية المحتوى، جو النص»

م.د. عبد الناصر هاشم محمد الهيتي
م.د. محمود شاكر ساجت
جامعة الأنبار ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

المقدمة

لقد كثرت إبداعات الباحثين والدارسين للنص القرآني، وبخاصة الذين تناولوا المتشابه اللفظي لآيات التنزيل قديما، والذين يدرسونها اليوم تحت عنوان التعبير القرآني، إن إبداعهم يكمن في إبراز جانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم، إعجازه على مستوى استخدامه الدقيق للمفردة إذا ما قارنوها بمثيلاتها في سياقات مختلفة، أو على مستوى موقع تلك المفردة في النسق تقديما وتأخيرا أو تعريفا وتنكيرا أو إفرادا وتثنية، أو على وزن من أوزان الجموع الكثيرة، أو ما إلى ذلك.

إنهم يعمدون في جل دراساتهم إلى المقارنة بين مختلف التعبيرات في نصوص مختلفة، وكثيرا ما يعولون على السياق الداخلي القريب في معالجاتهم ومقارناتهم، وغالبا ما ينظرون في السابق واللاحق للآية التي يدرسونها، ويعبرون –أحيانا– السياق القريب ليدرسوا في أبعد من ذلك.. إلا أن تعويلهم على السياق الكلي للنص، واعتمادهم السمات العامة فيه غالبا ما يكون إشارات عابرة ولمسات من بعيد، مع ما لهذه السمات من أثر كبير في إظهار نتائج رائعة على مستوى تحليل النص القرآني، وإبراز روائع التعبير على مستوى الدراسات النصية.

لذا وجدت أنه من المهم التنبيه إلى هذه المعايير النصية وبحثها بشكل موسع، وإجراء التطبيقات العملية على مفرداتها في نصوص مختلفة من القرآن الكريم، لتنظمَّ إلى تلك المعايير الأخرى التي يعتمدها دارس النص القرآني لتتكامل الجهود وتتوسع أطر البحث وتتبلور المناهج العلمية التي تستخدم في هذا المجال من البحث.

إن السمات العامة في النص القرآني كثيرة، سواء منها ما كان على مستوى الشكل، كمراعاة النظائر، وبروز الظواهر الأسلوبية المتعددة الجهات أو ما كان على مستوى المضمون، كبنية المحتوى، وجو النص، ونواة النص «فكرته المركزية»، وما إلى ذلك، ولكثرة هذه السمات وصعوبة جمعها في بحث محدود الصفحات كمثل هذا البحث، لذا رأيت أن أنتقي بعض تلك السمات، وإرجاء بعضها الآخر على أمل أن تبحث في بحث آخر جديد إن شاء الله تعالى.

ولقد وقع الاختيار على ثلاث سمات هي: «مراعاة النظائر، وبنية المحتوى، وجو النص»، وتقدمت كل سمة من هذه السمات تقدمة تنظيرية تُعرِّف بها وتوضح كيف ينظر الدارس من خلالها إلى النص واقتناص أثرها فيه، وأعقب كل تقدمة تطبيقات على نصوص مختلفة من القرآن الكريم، بيّنتُ فيها أثر تلك السمات في بنية أجزاء النص، مع استخدام أسلوب المقارنة بين النصوص إذ بها تبرز خفايا لم تكن في حسبان القارئ سواء العادي منهم أو المتمرس الناقد، والله أسأل التوفيق والقبول.

■ **المبحث الأول: مراعاة النظائر.. إن تناسق الاختيارات في النص القرآني ومراعاة النظائر فيه على المستوى الشكلي، لا يُعدّ من قبيل الزينة اللفظية أو المحسنات البديعية، مع ما لهذين الأخيرين من أثر واضح على المتلقي[1]. إذ إن الأمر أبعد من ذلك وأعمق، فهو يرجع إلى نظام عام ينتظم النص كله ويكمن وراء البناء الشكلي، بل وربما وراء اللغة التي يتألف النص من مفرداتها ووفق قواعدها وأعرافها.**

إنها سمة تلفت نظر القارئ المتمرس وتجعله يمسك بها في جعبته مثيراتٍ أسلوبية تُمكّنه فيما بعد من الوصول إلى نظام العلاقات التي تعبر حدود التجاور بين المفردات بحسب قواعد النحو العربي، إلى مستوى التناسق والتناغم بين الكل والجزء، وبين الأجزاء بعضها مع بعض وهي تؤلف بمجموعها النص. فهي الآن في إطار التأثير الذي يضفيه الكلي على الجزئي، انطلاقا من بنية المحتوى واختيار المفردات التي تشكلها وتظهرها مقروءةً، وصولا إلى تعالقها مع بعضها وفق ذلك النظام العام إذ (إن الهياكل التركيبية والهياكل المعنوية متصلة فيما بينها اتصالا شديدا)[2]. فهي تتأثر بالمحتوى من حيث بروز مفردات معينة في موضع ما تحكيه، ومن ثم تتأثر مفردات أخرى بتلك التي برزت، مراعاة للنظائر التي تنبئ مجتمعةً عن النظام الذي يسيّرها ويحتويها (إن بنية النص تتكون من عناصر، وهذه العناصر تخضع لقوانين تركيبية تتعدى دورها من حيث هي روابط تراكمية تشد أجزاء الكيان بعضه إلى بعض، فهي تضفي على الكل خصائص مغايرة لخصائص العناصر التي يتألف منها النص)[3].

إن مراعاة النظائر داخل النص الواحد تعد من السمات العامة للنص القرآني، وهي من المعايير المهمة التي يمكن أن يعتمدها القارئ للوصول إلى تحليل وتعليل الاختلافات في البنى التركيبية لأجزاء النص، إذا ما قورنت بمثيلاتها في نصوص أخرى، والذي يبدو لي بعد قراءة كثير من التحليلات والمقارنات أن تلك الاختلافات ليست نتيجة اختلاف بنى المحتوى والسياق القريب فحسب، بل هي تابعة أيضا للنشاط التفاعلي الداخلي بين جميع عناصر النص، (إن كل نص يحتوي ضمنيا على نشاط يجعل من كل عنصر فيه عنصرا بانيا لغيره ومبنيا في الوقت ذاته)[4]، وقد أشار الدكتور فاضل السامرائي إلى هذا المعنى في قوله: (وقد يكون للسورة كلها سمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة، وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيرا ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد، وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك)[5].

● **والآن لنأخذ بعض النماذج التطبيقية التي توضح أثر هذه السمة:**

المجموعة (أ): جاء في سورة النحل قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (النحل/34). وجاء في الزمر قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا..﴾ (الزمر/48)، وفي الزمر أيضا: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا..﴾ (الزمر/51).

المجموعة (ب): جاء في النحل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (النحل/111)، وجاء في الزمر: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا

يَفْعَلُونَ﴾ (الزمر/70)، وجاء في البقرة: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/281).

فلسائل أن يسأل عن سبب اختيار «عملوا» في سورة النحل، واختيار «كسبوا» في سورة الزمر في آيات المجموعة (أ)؟.

وجوابه يظهر بجلاء عند القدماء الذين عنوا بدراسة المتشابه اللفظي في آيات الكتاب العزيز.. وليس يهمنا –هاهنا– الجواب عن هذه الأمثلة فجواب القدماء موجود ومثله جواب الباحثين في هذا المجال اليوم، بل المهم أن نقرأ إجاباتهم لنرى مدى فاعلية المعيار الذي نحن بصدده في تخريج تلك الإجابات، وبخاصة عند القدماء لنعرف من خلالها الآتي:

1. وعيهم بالنص وبما يسميه المحدثون بالنصية، ومعرفتهم بأثر السمات العامة للنص في اختلاف طرق التعبير عن المعنى الواحد، مما يخرجهم قليلا من دائرة الاتهام بالوقوف عند حدود الجملة وعدم تجاوزها إلى عموم النص كما وصف بذلك –وهو حق– أهل البلاغة والنقاد القدماء.

2. الاستدلال بنظرتهم التحليلية الشمولية التي تظهر من خلال قراءتهم للنص كله، على السمة التي ندرسها في هذا المبحث، وهي مراعاة النظائر، وإن اختلفت مصطلحاتهم في التعبير عنها فلا مشاحة في الاصطلاح.

3. وعيهم بقضية الاختيار أو الإيثار لا بحسب السياق القريب فحسب بل على مستوى سياق النص، وقضية التوزيع، جاء في درة التنزيل في تعليل اختيار «كسبوا» في سورة الزمر: (والجواب أن يقال إنما جاء قوله: «كسبوا» في هذه السورة بناء على ما وقع الخبر به عن الظالمين في الآية التي قبل هذه، حيث يقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ (الزمر/ 24–25)، ثم اعترضت آيات تؤكد ما على الظالمين من الوعيد... إلى أن انتهت إلى ذكر هؤلاء الظالمين –أي كفار قريش لمشابهة حالهم حال الذين من قبلهم– ثم قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي الجزاء على ما كسبوا من سيئاتهم كما قيل لهم ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ثم أتبعه بذكر الكسب في الآيات التي بعدها في قوله: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا..﴾ (الزمر/49–50)..)[6]. فلما أراد مقارنتها بالجاثية التي ورد فيها ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ (الجاثية/33) قال: (وأما الآية التي في الجاثية، فالطريق في اختيار «عملوا» فيها كالطريق في اختيار «كسبوا» في سورة الزمر)[7]، فلا يخفى وعيه بقضية الاختيار وطريقة التعليل، التي تعتمد ممارسة النص كله دون الوقوف في حدود السياق القريب.

● والآن فلننظر في لتحليلات التي وردت عنهم في المجموعة (أ) للوصول إلى تلك السمة.

جاء في البرهان في تعليل آية سورة النحل: (وخُصَّت هذه السورة –بلفظ عملوا– لموافقة ما بعده، وهو قوله ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ (النحل/111)...)[8]. فواضح أن صاحب البرهان طوّف نظره على عجالة في النص ولم يقف عند حدود الآية في بحثه فخرج بنتيجته هذه وهي مراعاة النظائر

التي عبّر عنها بمصطلح «الموافقة»، أي موافقة لفظة «عملوا» لنظائرها في آيات السورة، وقد تقدم قبل قليل ما جاء في درة التنزيل من القراءة الواعية الدقيقة لاستخدام لفظ «كسبوا» في الزمر و«عملوا» في الجاثية، بما يزيد هذه المسألة وضوحا. أما صاحب ملاك التأويل فقد عبر عنها بمصطلح (استدعاء التناسب في كل من الموضعين)[9]، بمعنى استعمال ما يستدعيه لفظ العمل في سورة النحل من النظائر، ولفظ الكسب في سورة الزمر من النظائر، وقد زاد صاحب ملاك التأويل العمل دقة، فاستعمل أسلوب الإحصاء فذكر أغلب الآيات التي ورد فيها لفظ العمل في سورة النحل، وكذلك فعل في سورة الزمر وبعدها خرج بنتيجة هي: (فقد وضح وجه التناسب في الآيتين، وعكس الوارد لا يناسب)[10]، وبالإحصاء الدقيق نقول: إن لفظ «العمل» ومشتقاته ورد في سورة النحل إحدى عشرة مرة[11]، ولم يرد لفظ الكسب فيها البتة، أما في سورة الزمر فقد ورد لفظ «الكسب» ومشتقاته فيها خمس مرات، فصار كل استعمال مناسبا للاستعمال العام للمفردات في كل نص.

ولكن لا يقف البحث عند هذه النقطة، بل يمكن الذهاب في التحليل إلى أبعد من ذلك، إذ يمكن لنفس السائل أن يسأل: لماذا خصت سورة النحل بألفاظ العمل والزمر بألفاظ الكسب، ألا يمكن العكس؟

وهذا سؤال وجيه إجابته تعمق البحث في الدراسة النصية. ويمكن أن يجاب بالآتي.. إن لفظ العمل من حيث معناه اللغوي الدقيق هو الأنسب في سياق سورة النحل، ولفظ الكسب هو الأنسب في الزمر. فهو يفترق عن الكسب بمعان دقيقة إذ إن (أصل العمل في اللغة: الدُّؤُوب، ومنه سميت الراحلة يَعْمُلَة)[12]. فهو عام يدل على الحركة والدأب والمثابرة دون النظر إلى نوع العمل خيرا كان أو شرا، دنيويا أو أخرويا، أما الكسب: ففيه معنى المعالجة والمراس، وقيل هو ما فعل بجارحة[13]. والكسب في الاستعمال القرآني، كما يرى كثير ممن يهتم بالفروق بين ألفاظه (أن الكسب كثيرا ما يأتي في الأعمال السيئة)[14]، ولقد فرق صاحب البرهان بين معنى الفعلين فقال: (العمل أعم من الكسب)[15]، وفي ضوء هذه الفروق الدقيقة بين الفعلين يمكن قراءة الاستعمالين في كل نص من جهتين: أما الجهة الأولى: فسورة النحل يلمح القارئ فيها أنها مشحونة بالحركة والعمل الدؤوب، وبخاصة عندما يرى أنها تذكر امتنان الله تعالى على عباده بما سخره لهم وهيأه من الأعمال والحرف والمهن والصناعات:

- فيذكر في البدء امتنانه عليهم بمهنة الرعي، وهي المهنة الألصق بحياة المخاطبين آنذاك: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل/6)، فقوله ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي ترجعون من الرعي مساء، و﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي تخرجونها بالغداة إلى المرعى[16]، ولا تخفى حركة الرعاة وأغنامهم وإبلهم في هذا العمل.

- ويذكر مهنة التجارة عن طريق البر بواسطة الدواب ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ (النحل/7)، وقوله أيضا في الرعي ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي الماء تشربونه والشجر ترعون فيه دوابكم[17].

– ويذكر مهنة الصيد ومهنة الغطس واستخراج الحلي واللؤلؤ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...﴾ (النحل/14).

– ويذكر مهنة التجارة البحرية ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾، من فضله: (أي من سعة رزقه بركوبها للتجارة)[18].

– وعندما ينتقل السياق من الامتنان بالنعم إلى معالجة العقيدة والتوحيد، يشير إلى العمل والمهن أيضا فقال: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (النحل/46)، أي: في سعيهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم وتجاراتهم[19].

– ويذكر مهنة اتخاذهم المناحل لاستخلاص العسل واتخاذ الخمر –قبل تحريمها– وطلبهم الرزق الحسن، أي الطعام الطيب من مهنة الزراعة، ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النحل/67)، وقوله ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ﴾ (النحل/69)، وفي الآية تلميح لصناعة الأدوية.

– ثم يبين حركة النحل وعمله الدؤوب وهندسته البديعة التي تعملها في بيوتها بأطوال وأحجام وأشكال متساوية متناسقة، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ (النحل/68–69).

– ثم يمتن الله على المخاطبين بتفضيل بعضهم على بعض في الرزق، أي العمل ونتاجه ﴿وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ﴾ (النحل/71).

– وفي المثل المضروب للآلهة التي تعبد من دون الله ترى مظاهر العمل، إذ استقي المثل من حال عبيدهم، فأحدهما يعمل وينتج بجد ونشاط، والآخر أبكم لا يقدر على العمل ولا الإنتاج.

– ثم ذكر بعد ذلك مهنة بناء البيوت من الطين، ومهنة الغزل والنسيج، وما أشبه ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا...﴾ ومهنة صنع الأثاث ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل/80).

– ثم صناعة الحديد والدروع وهي من صناعات الحرب ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

– ولما أراد أن يحثهم على التمسك بعهد الله وعدم نقضه شبه لهم النقض للعهود والأيمان بإحدى الصناعات وهي الغزل والنسيج ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل/92).

– وفي نهاية السورة يذكر كل هذه النعم مجتمعة في القرية التي أغدق الله عليها النعمة والرزق، ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ...﴾ (النحل/112).

– وختم النص بذكر أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في مهنتهم وهي مهنة الصيد...

بعد هذا العرض السريع للبنية التي تنتظم هذا النص، وما لُمِحَ فيها من الحركة في الأعمال والصناعات والمهن وظهور جو الحركة والدؤوب التي تتعالق مع المفردات التي ظهرت على السطح في البنية الشكلية، يتبين لنا بشكل لا يقبل الشك، أن هناك خيوطا غير مرئية تربط أجزاء النص، بعضها

بعض، وأن هناك نظاما يحكم الأجزاء والتراكيب واختيار المفردات من الداخل ليجعلها شكلا ظاهرا متناسقا تتناسب فيه الاختيارات وتتقابل فيه النظائر، بما ينبئ عن كلية النص.

أما سورة الزمر: فتقديمها ينبئ عن موضوعها وبنية محتواها، فهي تعالج قضية خاصة، قضية اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله تعالى،وهي قضية تعد من كبائر السيئات التي يكسبها البشر، وهي كبيرة الإشراك بالله، الذي هو الظلم العظيم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان/13)، فلما كانت السورة تسير بهذا السياق الخاص، لا جرم أن عبر عنه بلفظ الكسب الذي هو أخص من العمل، وكثيرا ما يستعمل –كما تقدم– في الأعمال السيئة. لقد ورد لفظ الكسب خمس مرات في هذا النص، وهذا الاستخدام جاء مناسبا للمحتوى، ووردت هذه الألفاظ في ثلاثة مواطن من النص، وفي كل موطن ترد مقترنة بلفظ الظلم الذي هو في سياقها يأتي بمعنى الشرك[20].

أما الموطن الأول: فبعد أن أمر الله تعالى نبيه بإعلان التوحيد وعبادة الله وحده مخلصا له الدين، وهدد المشركين بقوله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ (الزمر/15)، جاء استخدام لفظ الكسب مقترنا بلفظ الظلم ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (النحل/24) فقوله ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني بهم المشركين[21]، أي قيل لمن كسب سيئة الشرك ذق جزاء ما كسبته من هذه السيئة[22].

والموطن الثاني: جاء بعد ذكر اتخاذ المشركين شركاءهم شفعاء من دون الله، واشمئزاز قلوبهم إذا ذكر الله وحده، فقال بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا..﴾ (الزمر/47–48)، ويقترن هنا لفظ الكسب بلفظ الظلم أيضا، في قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (وهم المشركون)[23]، فبدا لهم سيئات خطيئتهم التي اكتسبوها وهي الشرك.

والموطن الثالث: ويأتي بعد الموطن الثاني بقليل، وقد ورد فيه لفظ الكسب ثلاث مرات، مرتين جاء بمعنى كسب السيئات، ومرة بمعنى كسب الأموال والأولاد، وبينهما تقابل وتجانس في اللفظ غير تام، وذلك قوله ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ..﴾ (الزمر/49–52)، فقوله ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقابل قوله ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي لم تنفعهم الأموال والأولاد التي خولهم الله فيها في إنجائهم من جزاء السيئات التي كسبوها، أي ما أغنى عنهم ما كسبوه من متاع الدنيا من المال والولد، عن دفع جزاء ما كسبوه من جريمة الشرك والظلم[24]. ثم تحول الخطاب إلى مشركي العرب، فوصفهم بالظلم لمشابهتهم من سبقهم به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء﴾، أي مشركو العرب، وقدم وصف الظلم للدلالة على سببيته في استحقاقهم لأن تصيبهم سيئات ما كسبوا.

ويظهر مما تقدم أن بنية النص رشحت ألفاظا تناسب قضاياها المطروحة في معالجتها، فلما ترشح لفظ الكسب هنا روعي فيه أيضا مراعاة نظائره فيما حوله من السياقات، وتعلقها بتلك الجزئية المخصوصة التي يجري النص على منوال معالجتها، وهي قضية الشرك، وتلك السيئة العظيمة التي يكسبها المشركون.

● أما الجهة الثانية، التي يمكن أن يقرأ فيها استعمال لفظ «العمل والكسب»، فهي قراءة المجموعة الثانية من الآيات (ب)، إذ إن مما يدل على أن أمر مراعاة النظائر ليس المعول فيه على ظاهر الشكل والبنية السطحية فحسب، بل على بنية المحتوى أيضا، ما جاء في المجموعة (ب) من الآيات:

جاء في آخر النحل قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (النحل/111)، فروعي فيه المضمون والنظائر، وجاء في الزمر قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (الزمر/70)، فلم يراعَ فيها النظائر، وجاء في البقرة قوله: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/281).

فيقال في آية النحل: إنها جاءت موافقة لنظائرها من ألفاظ العمل، وكذلك هي في موضعها هذا أفادت المعنى العام للعمل، إذ هو مراد هنا، فالسياق سياق الفصل بين كل الناس مؤمنهم وكافرهم، ولما كانت أعمالهم تختلف جنسا ونوعا، فأعمال المؤمنين بالجنس أعمال صالحة، ويوفى كل عبد بحسب نوع العمل الذي قدمه وبحسب كمه وإخلاصه، وأعمال الكافرين طالحة بالجنس، ويوفى كل عبد بحسب نوع عمله وجريمته، فلما كان المراد هنا توفية الكل لأعمالهم، وهي مختلفة، لا جرم أن استخدم لفظ العمل الذي هو أعم من الكسب، لمراعاة هذا العموم.

أما آية الزمر: فاستُخدِمَ فيها لفظ «العمل» ولم يراعَ فيه نظائر الكسب التي وردت كثيرا في النص، وذلك لأن ألفاظ الكسب استخدمت في النص حينما كان السياق يتحدث عن ذلك الموضوع الخاص، وهو سيئة الشرك التي يكسبها المشركون، ولما كان سياق الختام في النص ليس خاصا بأولئك المشركين، بل جاء ليفرق بين زمرتين –ومنها جاءت تسمية الزمر– زمرة الموحدين وزمرة المشركين[25]، يفرق بينهم بالأعمال وجزاء الأعمال وهي مختلفة –كما تقدم– من حيث الجنس والنوع، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر/71) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر/73)، فلما كان الأمر كذلك كان اختيار لفظ العمل هنا هو الأنسب لعموم الأعمال المتحدث عنها في توفيتها لكل فريق، فدل هذا على أن مراعاة النظائر أمر تابع للنظام العام الذي ينتظم النص، إذ يتكامل فيه عمل المحتوى وعمل العناصر المعبرة عنه.

وأما آية البقرة: فجاء اختيار لفظ «الكسب» فيها مناسبا للنظائر والمضمون، فقد وردت لفظة «الكسب» قبل هذه الآية أربع مرات، وجاءت بعدها ست مرات، منها قوله تعالى: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة/225)، وجاء بعد الآية أيضا قوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة/286)، فلا غرو أن جاء لفظ الكسب في الآية ليناسب نظائره القريبة والبعيدة في النص، أما من حيث المحتوى فقد جاءت

هذه الآية في موطن يتوسط الحديث عن المال وإنفاقه وإقراضه والربا فيه، فقبلها كان الحديث عن الربا، وحرمة التكسب منه، وإحلال البيع وطيب ما يتكسب به، وجاء بعدها الحديث عن الدَّين وكتابته والشهود عليه وما إلى ذلك، ولما كان المال يعبر عن تحصيله بالكسب[26]، اختير لفظ «الكسب» في الآية ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ليناسب المذكور، وليناسب سياقا آخر هو سياق التهديد، والتهديد مقرون بالأعمال السيئة، إذ الآيات قبلها تهدد من لم يترك التعامل في الربا بحرب من الله ورسوله في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، فلما كان السياق سياق تهديد غلَّب جزاء النفس الخاطئة الآثمة لما تكسبه من السيئات وتكسبه من المال الحرام من الأموال الربوية[27].

وفرق واضح في بناء كل آية من الآيات الثلاث، فالتي في النحل بيّن فيها أن النفس تأتي وتجادل عن نفسها لتوفى جزاء ما عملت، فهو موقف يظهر فيها السياق قوة النفس، والتي في الزمر حديث عن توفية كل نفس ما عملت وتغليب علم الله بعمل كل فريق، فبالتالي لن يظلم أحد، أما آية البقرة فقد بدأت بالتهديد ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾، والملائكة تسوقهم وتقودهم إلى الله، فلا شك أن التهديد والخوف في بناء الآية أظهر وأوضح.

■ المبحث الثاني: بنية المحتوى «اختلاف المضامين»

إن اختلاف المضامين التي ينطوي عليها النص –وإن كانت ضمن إطار واحد– من شأنه أن يؤثر في البنية الكلية لكل نص، وبالتالي يؤثر في بنية أجزائه، فالنص (بنية وظيفية لا يمكن فهم عناصرها إلا من خلال ربطها بالمجموع)[28]، وتلك البنية الوظيفية هي التي يعبر عنها النقاد بالمحتوى، الذي يُنَزَّلُ منزلة المؤثر الذي تتداعى إليه سائر التفاصيل في الأثر الأدبي ولا يتأتى تفسيرها إلا به[29].

يبدأ القارئ بالنظر في المحتوى منذ أول لحظة، إذ إن لكل جملة في النص موضوعها الجزئي الذي ينتمي تواصليا إلى موضوع المتتالية الجملية التي تحتويها، ثم تكون المتتالية من حيث المحتوى، بالنسبة إلى المفاصل الكبرى في النص كنسبة الجملة إليها، وبمجموع تلك المفاصل والمقاطع يتولد المحتوى العام للنص، وذلك ما يسمى بحسب «فان دايك» بـ(البنية الكلية)[30]، والتي من خلالها (يتم تأويل المعنى)[31]، ومن ثم بعدها يمكن قراءة الشكل إذ (إن الهياكل التركيبية والهياكل المعنوية متصلة فيما بينها اتصالا شديدا)[32]، من هذا المنطلق يمكننا تفسير اختلاف البنيات للشيء الواحد –كمشهد القصة الواحدة إذا تكرر في أكثر من نص– تبعا لبنية محتوى النص الذي ورد فيه، فاختيار المفردات المصورة أو التراكيب الموحية أو الاستعارات والتشبيهات وما إلى ذلك تابع له، إذ هو من السمات الكلية التي تطبع النص بطابعها الخاص مما يحقق التلائم والتناسق ويجعل (كل جزء فيه ملتئما مع سائر الأجزاء في نظام واحد)[33]، وبنية المحتوى تفرض نفسها على الشكل وتؤثر فيه و(ما يسمى شكلا ليس في الحقيقة سوى بنية تتألف من أبنية موضعية أخرى توحي بفكرة المحتوى)[34].

● وللتمثيل على هذه المفردة اخترت أنموذجا من النص القرآني، وهو الأمثال المضروبة للآلهة المزعومة، المأخوذة من حال العبيد الذين يملكهم أولئك الزاعمون، وهي أربعة أمثال فقط وردت في القرآن، وتقوم على فكرة المقابلة بين «العبد المملوك» وبين «الحر المالك»، هذا من حيث الإطار العام، وهذه الأمثال هي:

– قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (النحل/ 75).

– وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل/76).

– وقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم/28).

– وقوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر/29).

هذه أمثال أربعة مستوحاة من الحياة الواقعية التي كان يعيشها العرب في أيام البعثة النبوية، وهي مستقاة من حالهم مع مملوكيهم من العبيد والإماء، والهدف منها هو تقرير المعاني التي يعرفونها بالبديهة والفطرة، ليصل بهم إلى الحال التي يجب أن يكون عليها العباد جميعا مع مالكهم وخالقهم الله تعالى، وهذه الأمثال الأربعة –عموما– تتضمن أطرافا أربعة:

العبد ← الحر ، الآلهة المزعومة ← الله «جل جلاله»

الطرفان الأولان –وهما الممثل به– يردان في المثل، والطرفان الآخران محذوفان من المثل مفهومان من سياق سابق أو لاحق، وعلى الرغم من تكرار هذه الأطراف، واتحاد الإطار، ووحدة الهدف، إلا أن أشكال التعبير في كل منها اختلفت تبعا لمحتوى النص ومضامينه، فجاءت وفقا للوجه المقصود من التمثيل.

المثل الأول: كان التركيز فيه على وصف العبد في حال كونه مملوكا لغيره، فهو عاجز لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، يقابله الحر الذي يملك ويقدر على التصرف في ملكه.

والمثل الثاني: يشابه الأول، إلا أنه زاد عليه أن العبد أبكم لا يملك ولا يقدر وفوق ذلك هو يكلف مولاه ومالكه مؤونته، في مقابل الحر الذي رزقه الله حسن المنطق والفصاحة وطرق البيان.

والمثل الثالث: كان التركيز فيه على حال الحر مع عبده في تصور أن يكون مشاركا له في الملك والمال، مما يسبب تخوفه تجاه عبده، وهي حال نفاها المثل.

والمثل الرابع: كان التركيز فيه على حال العبد مع مالكه الحر –عكس الثالث– والبارز فيه وصف الملكية بين مالك واحد ومملوك سلم له، ومملوك واحد وفيه ملاك متعددون متشاكسون.

هذا وصف سريع موجز لمضامين الأمثال ليجري بعدها مقارنة هذه المضامين بمضامين النصوص العامة، ثم الوصول إلى أثرها في تشكيل وبناء تلك الأمثال.

● **المثلان في سورة النحل:**

تقدم في المبحث السابق أن سورة النحل كانت حافلة بذكر الأعمال والحرف، والمهن والصناعات، مشحونة بحركة العاملين باختلاف أجناسهم وأنواعهم وأعمالهم، ولقد ترك هذا الأمر أثرا وظلالا على سياق النص ظهر ذلك في اختيار المفردات والأشكال التي تتناسب وتلك المضامين، فمن إطار تذكير الله تعالى لعباده بتلك النعم وما سخره لهم من سبل العيش التي يكسبون منها أرزاقهم، أراد سبحانه أن يعالج قضية التوحيد الأساسية، وأن يوجه العباد إلى عبادته وحده، وترك ما يشركون به من الأصنام والأوثان، فاستعمل لونا من ألوان الاستدلال على استحقاقه للعبادة دون غيره، فضرب ذلك المثل وقدم له بآيات تتكلم عن الرزق: ﴿وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (النحل/71).

ومن هنا تبدأ المقارنة بين الحر والعبد، من مسألة الرزق (فلا يعطي المالكون مملوكيهم مما أعطاهم الله ما يصيرون به شركاء لهم متساوين معهم في المال، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم فلماذا رضوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده)[35].

ثم بعد ذلك يصرح السياق بعبادتهم لمن لا يملك لهم الرزق ولا يستطيعون، قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ (النحل/73). فعاب معبوداتهم بعيب يتوافق وما تتحدث عنه السورة من أمر الرزق، فوصفها بأنها لا تملك من أمر رزقهم شيئا لا من السماوات –بالأمطار والأقدار والأرزاق– ولا من الأرض –بالنبات والأقوات والمعادن– فهي لا تملك الرزق ولا تقدر عليه[36]. ولتقرير هذا المعنى وتقويته والإشارة إلى مقتضى حال المخاطبين ومنطقهم ومعلوم فطرتهم جاء بالمثل على هذا النحو، فقال: ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (النحل/ 75).

ولا يخفى التناسب بين المضامين، والتناسب في الاختيارات فقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا..﴾، يناسب قوله ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ حيث تدرّج بهم من نفي الملك عنهم إلى استظهار حقيقة حالهم التي هي أدنى من حال العبد المملوك، وقوله ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾، يناسب قوله ﴿لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في نفي الحول والقوة والاستطاعة.

والطرف الأول في المثل: هو العبد.. وأول أوصافه أنه «مملوك»، وهذا الوصف يوحي بفكرة الملكية والتملك التي تندرج ألفاظها في الحقل الدلالي الذي ينتظم مفردة «العمل»، فهي تندرج مع ألفاظ «الرزق، ملك اليمين، نعمة، يملك، رزقا حسنا، الإنفاق..»، ويفهم من وصفه بمملوك أنه مجرد من أهلية التملك، ووصفه بأنه لا يقدر على شيء كناية عن عجزه عن التصرف[37]. فهو إذن موصوف بنقيض ما يعج به النص من الحركة والعمل، فهو لا يعمل ولا يملك ولا يقدر. والممثل له بهذه الحال هي تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك الرزق ولا تستطيعه، والقارئ يستطيع أن يقارن بين الطرفين ليظهر له مدلول

المنطق السليم والفطرة فإنه (ما كان لإنسان ليخطر بباله أن يعبد أحدا ما لم يظن فيه أنه قادر على أن يسد خلّته)[38]. فإذا لم يخطر في بالهم عجز آلهتهم تنبهوا لذلك بمقتضى حالتهم بأبسط مثل.

الطرف الثاني في المثل: الحر.. موصوفا بأهليته للملك وقدرته على التصرف وهي أوصاف تندرج تحت نفس ذلك الحقل الدلالي ليرتبط بنفس المضامين، ليخلص إلى وجه التمثيل وهو المقصود الكلي والدلالة النهائية للمثل كأنه يقول: (إن مثل هؤلاء في إشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء، ولا مساواة بينهما مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى، فما الظن برب العالمين، حيث يشركون به أعجز المخلوقات)[39].

● أما المثل الثاني.. فما زال الحديث فيه يسير في نفس السياق ولكنه وسع مدلوله وزاد عليه أوصافا لم ترد في المثل الأول، ليتناسب مع مضامين أخرى في النص، فإذا كانت صفات النقص للعبد المملوك في المثل الأول صفات لازمة له لا تتعداه في مردودها إلى غيره «المملوكية والعجز»، فهي في هذا المثل مُعَدَّاة إلى غيره، فهو الآن «أبكم» لا يُفهم، و«كل على مولاه» إذ من عجزه لا يستطيع أن يصلح نفسه، ولا يفهم غيره فصار «كلا» أي ثقيلا على من يلي أمره[40]. فبدل أن يعمل لنفع سيده صار سيده قائما على أمره، مع عدم جدواه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، (أي حيث يرسله في أمر لا يأتي بنجحه وكفاية مهمه)[41]، ولا يذهب عن البال مدى علاقة هذه الأوصاف بموضوع العمل الذي يؤطر النص كله.

وفي مقابلة هذا الوجه، جاء بالطرف الثاني على أكمل الوصف، مركزا فيه الآن على التقابل بين «أبكم» ← «ومن يأمر بالعدل»، ليتناسب مع ما يشيع في النص من جهة أخرى من الأمر بالعدل والبيان الحسن والصراط المستقيم.فهو يحاكي مضامين عدة منها ما بين قوله ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وبين قوله ﴿وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل/9)، وسبيل الله تعالى هي الصراط المستقيم، والجائر من السبل هو المائل عن الحق والعدل وعن ذلك الصراط[42]. وقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل/90). وقوله: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل/125).

فظاهرٌ أمرُ التساوق بين الهياكل التركيبية والهياكل المعنوية كما بدا في بناء كلا المثلين، وربطهما بالمحتوى الكلي الذي أثر بلا شك في بنية هذه الأجزاء من النص على نحو ما تقدم وصفه.

● المثل الثالث.. وهو مثل سورة الروم، والملاحظ هنا أن مثلي سورة النحل جاء بصيغة عامة ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا﴾، و﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾، وكذلك الحال في مثل الزمر ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾، أما في سورة الروم فقد خصص فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾، والذي أراه أن بنية المثل تعتمد على مفردة «أنفسكم» هذه، فهو مضروب على جهة تبيين حال المالك الحر مع العبد المملوك، بخلاف مثل الزمر، الذي يبين حال المملوك مع مالكيه. وقوله ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾، إشارة إلى هذا المعنى، فهي تنبه على التفكر في حال المخاطب نفسه، وهي محور الارتباط بمحتوى النص، إذ قد

وردت لفظة «نفس» في هذه السورة ست مرات[43]، وفي أغلب المواطن جاءت في سياق الحث على التفكر بواقع أصحاب تلك النفوس، منها: أنه لما تم التقديم للسورة –وموضوعها التوحيد والبعث– بسبع آيات، بدأ العرض بالتفكر داخل النفس بدلائل التوحيد، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم/8)، فأراد أن يوصلهم إلى فهم حقائق تلك الدلائل من خلال التفكر في النفس، (أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم: أي في قلوبهم الفارغة من الفكر)[44]، وهذا المعنى قريب جدا مما في المثل.

ومنها قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم/21)، فانظر كيف عقب على هذه الآية التي ورد فيها «أنفسكم» بقوله ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فأيضا قرن التفكر في الآية بالأنفس، بمعنى استعمال أفكارهم على وفق القوانين التي يعرفونها في أنفسهم ويجتهدون في استخلاص النتائج منها[45]. ثم انظر بعد ذلك إلى جميع التعقيبات التي ختمت بها آيات دلائل التوحيد، فلما بدأ بقوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ناسب أن يكون التعقيب بذكر آلات التفكر وأدوات التدبر، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .. لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ .. لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .. لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الآيات/21–24).

فلما أراد أن يضرب المثل للآلهة المزعومة من دون الله –وهو نفس ما ضرب له المثل في النحل والزمر– جاءت بنية المثل مختلفة عن بنية الأمثال الثلاثة الأخرى وما ذلك إلا لصيرورة بنية الأجزاء تبعا لبنية المحتوى، وقبل أن يضرب المثل مهد له بهذه الآية ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (الروم/26)، فاللام في قوله «وله» للملك لتعطي معنى أن له (وحده كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن والحيوان، والنبات والجماد)[46]، وهم «قانتون» أي خاضعون له منقادون لسلطانه لا يتأبون عليه ولا يمتنعون، فهو وحده المتصرف بهم[47]، وبهذه الآية تبين حال كل المخلوقات لله تعالى الخاضعة له، وبهذه الحال يمهد السياق للمثل الذي يصف صورة من صور الملك في الأرض، وهي ملك الأحرار للعبيد، وبيان خضوعهم لهم وانقيادهم لأسيادهم ليتوصل من فقه المخاطب لحاله –إذا تفكر في نفسه– مع مملوكه الذي لا يشاركه في رزقه ولا يساويه فيه وكلاهما بشر مملوك لله تعالى، ليتوصل إلى الحقيقة التي تدعو إليها الفطرة ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم/28)، إنه إذا لم يكن لكم أيها البشر (من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل... تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستأثروا ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه... فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟)[48].

وهناك مناسبة أخرى للمثل، وهي أن التفكر في النفس يزيح الغشاوة عن الفطرة، ويوصلها إلى حقيقة ما تعرفه وتُقرِّبه في أصل خلقتها، ولهذا لما كان سياق السورة قائماً على التفكر في النفس وهو أهم طرق الوصول إلى إقرار الفطرة وحقيقة ما جبلت عليه من المعرفة الحقة لربها، لا جرم أن عقب على المثل بآيات التوحيد التي تشير إلى أنه هو أساس الفطرة بل هو الفطرة ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ

فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم/29-30). فالفطرة تعني أن (كل آدمي فطر على الإيمان بالله تعالى، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه... فالمراد بالفطرة قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه)[49]. وهي نقطة الارتباط مع المثل حيث ارتباط التفكر بالنفس مع الفطرة.

● المثل الرابع.. مثل سورة الزمر ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر/29).

وجهة المثل –كما تقدم– هي لبيان حال العبد مع مالكه، حتى ذهب صاحب التحرير والتنوير إلى تفسير لفظة «مثلا» في قوله ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، بـ(والمثل: الحال، والتقدير: هل يستوي حالاهما)[50]، والتركيز على الحال هنا آت من كونه هو بؤرة المعنى في المثل. والممثل به هنا كالآتي:

عبد ← يملكه شركاء متشاكسون ، عبد ← يملكه رجل واحد

والممثل له هنا كالآتي:

المشرك ← قلبه وفكره ومشاعره موزعة في جهات شتى ، الموحد ← قلبه وفكره ومشاعره مجموعة متوجهة إلى رب واحد وإله واحد.

ومجيء هذا المثل على هذه الشاكلة موصول ببنية المحتوى في النص، فسورة الزمر تعالج قضية التوحيد وإخلاص الدين لله، بل (تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد)[51]، وهي من عنوانها – الزمر– توحي بالتفريق بين زمرتين، زمرة الموحدين وزمرة المشركين، وتفرق بين دين الفريقين، دين الموحدين وهو إخلاص العبادة لله وحده، ودين المشركين، وهو تشتتهم بين عبادة الأصنام والأوثان والقبور والطواغيت، ومن ثم يسير سياق النص على هذا المنوال، من وصف حال الفريقين، وهذه نماذج تصف حاليهما:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..﴾ (الزمر/2–3).

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ... وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ...﴾ (الزمر/7)

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ... أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ (الزمر/8–9).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ... فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ... وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾. (الزمر/12–18).

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ..﴾. (الزمر/22).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ ... وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر/32–33).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ...﴾. (الزمر/36).

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر/45–46).

هذه نماذج بسيطة تبين حال كل من الفريقين –وهي الحالان الممثل لهما بهذا المثل–، حال المشركين: الذين اتخذوا من دون الله أولياء متعددين، فهم يحارون في أيهم يرضون، والذين كفروا بربهم الذي لا يرضى لعباده الكفر، وكيف يدعون أندادا كثيرة قلوبهم مفرقة بينها، والذين عبدوا الطاغوت، وتتمثل عبادتهم له باتباعهم شرائع الناس وقوانينهم المختلفة التي لا تراعى فيها طبيعة الإنسان ولا مقتضيات فطرته مما يسبب الشقاء والتشتت بين أهواء المشرعين من البشر، وكذلك هم القاسية قلوبهم من ذكر الله، الخائفين من آلهتهم المزعومة، وتشمئز قلوبهم من صفاء التوحيد ونقائه، وحري بهم أن يكونوا مثل العبد الذي فيه شركاء متشاكسون.

وفي مقابلهم حال الموحدين: الذين يعبدون ربا واحدا، ودينهم خالص له، وقلوبهم مطمئنة بكفايته لهم، قائمين ساجدين له وحده، مجتنبين الطاغوت، لا يسمعون إلا لقول ربهم، فيتبعون أحسنه، قد شرح الله صدورهم للإسلام فهم على نور منه، فحري بهم أن يقال عنهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾. وهذه المضامين المتقدمة يربطها جامع واحد تدور حوله ألا وهو «الدين»، إذ ورد ذكره بشكل مكثف في مقدمة النص، وكذلك قبل ضرب المثل مما يلفت النظر إلى خصوصية هذه الكلمة المنبه عليها بالتكرار، وخلاصة معناها بين اللغة والاستخدام القرآني هو الآتي[52]:

1. الحكم والسلطان والقهر والعلو والهيمنة ← يقابله الخضوع والعبدية والانقياد والتذلل.
2. النظام والقانون والحكم والأمر ← يقابله إطاعة الأمر والاتباع والخضوع للآمر.
3. الجزاء والحساب والمكافأة.

ففي المعنى الأول للدين: المشركون يعتقدون أن آلهتهم لها نوع حكم وملك وهيمنة، وإلا لما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله زلفا، وهذا المعنى هو المراد في أول السورة، وتكرر في أثنائها، ومنه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الروم/43-44).

فنفى عن الشفعاء المزعومين الملك، فلا سلطان لهم ولا علو ولا هيمنة، فهو نفي لما تضمنه المعنى الأول للفظة الدين، وإثبات الملك والسلطان والقهر لله وحده، ولما كان المشركون يعتقدون فيها هذه المعاني من العلو والملك، جاءوا بالمعنى المقابل لهذه المعاني، فخضعوا لها ودانوا وانقادوا وتذللوا فصاروا في تشتتهم بين هذه الآلهة والنزوع لها مثل عبد (يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه)[53].

وفي المعنى الثاني للدين: كان المشركون يعتقدون أن كبراءهم والملأ من قومهم لهم حق التشريع وسن القوانين وإحلال النظام، فهم يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، وهم بهذا الوصف يدخلون تحت وصف الطاغوت، وهو كل معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله[54]، وقد ورد ذكره في هذه السورة، فلما اعتقدوا فيهم هذا المعنى جاءوا بالمعنى المقابل له فأطاعوهم واتبعوا أوامرهم وخضعوا لقانونهم ونظامهم، ولما كان لكلٍّ وجهته وقانونه بما يتلاءم ومصالحه وأهواءه ويتقاطع مع مصالح غيره، فانظر كيف يكون حال متبوعيهم في إرضائهم وإنفاذ أمرهم، فـ(المشرك أسلم وجهه لأرباب متفرقين،

فكيف حاله في الدنيا في بعث عبوديته لهم)[55]. أما الموحد، فقد أسلم وجهه لله تعالى وحده وأخلص العبادة والدين –بالمعنى الأول– له ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ أي خضوعي وانقيادي في ذل العبودية لعز الربوبية[56]، وأخلص له الطاعة والانقياد وكفر بالطاغوت –بالمعنى الثاني– ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ... الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر/17–18). فـ(الموحد كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد رجل واحد، قد أسلم له وعلم خصائصه وعرف الطريق إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته مصالحه)[57].

لقد ألمح صاحب نظم الدرر إلى الربط بين المثل والمضمون بقوله: (ولما أقام الله سبحانه الدليل المنير على التفاوت العظيم بين من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يدعو الله مخلصا له الدين، وبين من يدعو لله أندادا وختم بضرب الأمثال، وكأن الأمثال أبين فيما يراد من الأحوال، قال منبها على عظمتها ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا..﴾ ..)[58]، ومثله فعل صاحب التحرير والتنوير، فقال: (فهذا المثل متصل بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فهو مثل لحال من شرح الله صدره للإسلام، وحال من قست قلوبهم)[59]، وقال أيضا: (.. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، فهذا معطوف على قوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ..﴾، والمعنى: إن الله الذي أفردته بالعبادة هو كافيك شر المشركين وباطله آلهتهم التي عبدوها من دونه)[60].

■ المبحث الثالث: جوّ النص.

جو النص: هو ما تعكسه المفردات ذات الشأن، أو الأحداث والمواقف أو الحالات النفسية للشخصيات المتحدث عنها، أو الصور والمشاهد التي يعرضها النص، فهو ما تعكسه هذه على خط تتابع النص، فتخرجه من الإطار اللغوي البحت –لغة وصرف ونحو ورتب– إلى عالم الأحداث المترابطة المتواصلة، سواء وهي تعود بالقارئ إلى وراء حيث الماضي، أو تربطه بالواقع متى كان، أو تنقله إلى عالم الغيب المستقبل أو حتى إلى العالم الآخر، وما يجري فيه من أحداث ومواقف، لا تخلو سورة من سور القرآن من جو يناسب موضوعاتها وأفكارها، فـ(لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي، أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محورها الخاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو)[61]. وظاهرٌ ما في هذا النص من تنبيه على أثر جو النص في بنية الأجزاء على نحو يجعلها متناسقة مع المحتوى والشكل العام، بل ربما يتعدى ذلك ليؤثر في اختيار التعبير المناسب لذلك الجو إذ (إن كل تعبير مناسب لجو السورة الذي ورد فيه)[62].

بمعنى أن القصة الواحدة –مثلا– تختلف طريقة التعبير عن مشاهدها من نص إلى نص، بحسب المؤثرات العامة والخاصة ومنها جو النص، فلا يخفى –على سبيل الإشارة– ما تركته مفردة «الرحمة» ومشتقاتها التي كثر استعمالها في سورة مريم من أثر على الجو العام للنص، فمنذ الاستهلال وظلالها

ممدودة ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا﴾ (مريم/2–3)، وما أحسن مثل هذا الاستهلال، وقديما كان النقاد والبلاغيون يعولون على أثر الاستهلال في استلماح المضامين والإيماءات فقالوا: (وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال)[63]، فقد شاع هذا الجو –جو الرحمة– منذ البدء وسرى في النص سريان المؤثر الذي يطبع الألفاظ والصياغات والقصص والمواقف بطابعه الخاص، فاقرأ إن شئت دعاء زكريا، أو نجوى مريم عليها السلام، أو محاورة إبراهيم لأبيه، وانظر أيضا كيف استعمل اسم الله تعالى «الرحمن» في مواطن كثيرة ، وربما القارئ المسترسل يتوقع أن يستعمل بدله اسما آخر، من ذلك قوله على لسان مريم التي تستعيذ ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ﴾ وسياق الاستعاذة يقتضي أن يورد اسما مثل الجبار المنتقم العزيز، وانظر قوله على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن﴾، والقول فيه مثل سابقه، وانظر قوله في سياق التهديد والوعيد ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾. وانظر إلى الفرق بين خطاب إبراهيم هنا وخطابه في الممتحنة، ففي مريم جاء بألطف الألفاظ وأحسن العبارات وغلب أسلوب النصح والشفقة «يا أبت.. يا أبت.. يا أبت»، وانظر سياقها في الممتحنة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا..﴾ (الممتحنة/4).

فواضح ما في مفرداتها «برءاء، كفرنا بكم، العداوة، والبغضاء»، من مناسبة لجو سورة الممتحنة وهو جو البراءة من الكفار وعدم موالاتهم، إذ كان أصل موضوعها معالجة ما بدر من حاطب بن أبي بلتعة ﷺ من أمر إخبار المشركين بما يخطط له النبي ﷺ لفتح مكة فنزلت وجوها وموضوعها يؤطران النص حول قضية الموالاة والمعاداة. وانظر أيضا اختلاف التعبير في قصة موسى عليه السلام ما بين سورة النمل وسورة القصص وكيف أرجع الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي جل تلك الاختلافات إلى السمة التي نحن بصددها وهي جو النص، قال عن سورة القصص (كان جو القصة –فيها– مطبوعا بطابع الخوف الذي يسيطر على موسى –شخصيات– عليه السلام، بل إن جو الخوف كان مقترنا بولادة موسى ... وبقي ملازما للقصة إلى أواخرها)[64].

مما أدى –بحسبه– إلى استعمال مفردات وتعبيرات تناسب هذا الجو مثل عدم القطع والجزم بل الترجي والإسهاب وغيره، بينما استعمل في سورة النمل مفردات وصيغ مناسبة لجوها جو العلم والتكريم مثل القطع والجزم واليقين والعزم وما إلى ذلك، ولتراجع هناك[65].

وإذا أردنا أن نأخذ شواهد أكثر تفصيلا للمقاربة وهذه السمة، فإن الاختيار وقع على نماذج من قصار السور، اختير فيها عنصر الليل –الزمن– وهي أربع سور اختلف فيها توظيف هذا الزمن واختلفت الصورة التي يرسمها الاستخدام لأوصافه من نص إلى نص تبعا للجو الذي اتخذ إطارا لعرض مضمون تلك السورة.

1. الانشقاق ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ آية 17.
2. الشمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾. آية 4.
3. الضحى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ آية 2.
4. الفلق ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ آية 3.

لقد جاء استعمال هذا الزمن «الليل» في هذه النصوص الأربعة كصورة مفردة جزئية تُكَمِّل مع الصور الأخرى المتعددة الأطراف الصورة الكلية التي تتخذ إطارا يؤطر النص، وهذه السمة بارزة بشكل ملفت للنظر في الجزء الثلاثين بعامة، لا في هذه السور الأربع فحسب، وإنما وقع الاختيار عليها للتدليل على المراد من هذا المبحث ولضيق المقام بدراسة الجزء كله.

لقد اختلفت جهات النظر إلى الليل بحسب المكنونات الخفية التي لا تظهر على السطح في هذه النصوص، الجو والظلال ← الأحداث والمواقف ← البناء الشكلي. واختلاف الوصف يوحي باختلاف الصور.

● فسورة الانشقاق فيها أحداث تنبئ عن وجود مكنونات مجموعة مضمومة في ظرف ما، عما قليل سينشق عنها ويلقيها، يبرز ذلك في قوله ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ فالسماء (تنشق عن الغمام)[66]، وعما يهطل منه من المطر، وما ينزل منها من الملائكة ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (الفرقان/25) أو أنها (تنشق عن المجرة)[67]، فبعد أن كانت مجموعة مضمومة إلى المجموعة الشمسية من الكواكب والنجوم، في انتظام جميل، سيكون الخراب وانفراط عقد تلك الكواكب والنجوم.

ويبرز أيضا بما تخرجه الأرض من مكنونها ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، أي (ورمت ما في جوفها مما دفن فيها من الموتى والكنوز)[68].

ويبرز أيضا بما يجمعه الكتاب الذي سيعطاه العبد يوم القيامة من الأعمال والأجور ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * ... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ﴾، ثم يأتي المشهد الذي يذكر فيه الليل، مشهد يختلف في أسلوبه واختيار ألفاظه، ونهايات الآيات فيه ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، فمن حيث عموم المضمون فهو قسم على انشقاق السماء، إذ قد فسر ابن مسعود رضي الله عنه ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، فـ(قال: السماء مرة كالدهان ومرة تنشق)[69]، أما التفصيل: فإسناد الفعل «وسق» إلى الليل جاء لمناسبات عدة، منها:

أن الفعل آخره القاف فهو به يناسب نهايات الآيات في المقطع كله من ناحية الصوت «شفق، وسق، اتسق، طبق»، فإذا وقف القارئ على نهاية كل آية فستكون قلقلة وسطى، توجب ارتداد صوت القاف في مخرجه فتجعله وكأنه يلفظ مرتين، فيجد السامع له طبقتين من الصوت الشبيه بالمكرر، هذه الطبقات التي تتكرر أربع مرات بحسب الكلمات توحي بالمناسبة مع ما ختم به المقطع في قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، فالفعل «وسق» متناغم مع الجو الذي يضفيه صوت القلقلة والصفير في المقطع كله.

ثم إن «وسق» كما تناسب صوتيا هنا، فإنه يتناسب دلاليا وجو النص، إذ إن له معنيين في اللغة، كلاهما يتناسب وفكرة المكنون المنشق عنه، أما المعنى الأول: فمن قولهم وسقه يسقه بمعنى: طرد،

فقوله ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ بمعنى وما طرده[70]، والمعنى: ما يطرده الليل ويخرجه مما يجتمع فيه من مكنوناته كالنجوم والدواب والهوام والشرور التي تقع فيه[71]. وهو مناسب لما تنشق عنه السماء وتتخلى منه الأرض.

وأما المعنى الثاني: فوسق بمعنى: جمع وضم، أي: (وما جمع وضم... أي ما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها)[72]، وهذا المعنى مناسب لما يجمعه كتاب كل إنسان سواء يؤتاه بيمينه أو بشماله، من الحسنات والسيئات، وهو مناسب أيضا لما في الآية بعده ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، فقوله «يوعون» من الفعل وعى يعي، من قولهم: (وعاه يعيه: حفظه وجمعه، كأوعاه)[73]، فما يجمعه الليل من الدواب والهوام والشرور والظلمات مناسب لما يجمعه الكفار في صدورهم فهم (يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء، أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب)[74]، فهذه الصورة التي رسمها الليل ضمن إطار النص جاء على أحسن المناسبة وأجمل التناسق سواء على مستوى الصوت أو على مستوى الدلالة.

● أما سورة الشمس.. فجوها يعبر عن جو النفس الإنسانية ويمهد لوصفها بمقاربتها من المشاهد الكونية الثابتة، ليعرف الناس حقيقتها، واستعداداتها الفطرية ودور الإنسان في شأن نفسه، وهذه الحقيقة يربطها السياق بحقائق الكون ومشاهده الثابتة[75]، فجو المشهد الكوني هنا يجمع بين حقيقة النور والضياء، وانكساف ذلك النور والضياء ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء/12)، فعبر عن النور والضياء بجمل كثيرة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ الشمس هي مصدر النور، والضحى من آثار ضوئها، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ والقمر يستمد نوره منها، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾، أي أظهر الشمس وجلا نورها، فها هي مصادر النور في الكون كثيرة، أما الظلام فهو طارئ عليها عبر عنه بجملة واحدة استعمل فيها الليل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، فالظلام إذن ليس ذاتيا بل هو يغشى الشمس ويكسف نورها ويغطيه ولكن لا يذهبه ولا يزيله، فما زالت الشمس مضيئة في ذاتها، وما زال ضوؤها ينتشر في أرجاء الكون إما ضياء في الضحى، وإما نورا في الليل، وهذه الحقيقة الكونية تحكي حقيقة النفس الإنسانية فقد ألهمها الله نورها وظلمتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ففيها الاستعداد للخير والتقوى بنور الإيمان وضياء الحق الذي جاءها منه تعالى كضوء الشمس وضحاها، وفيها الاستعداد للشر إذا ما عمد الإنسان إلى أن يغشيها بظلمة الكفر أو الذنوب والمعاصي، كما يغشى الليل الشمس. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾، وما تدسيتها إلا من معنى (دسس، فالتزكية أن يحرص الإنسان على شمسه أن لا تكسف وقمره أن لا يخسف، ونهاره أن لا يتكدر، وليله أن لا يطفى، والتدسس: أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه، ويخسف قمره، ويتكدر نهاره ويدوم ليله)[76].

وما تلك المشاهد التي وردت في هذه السورة إلا دلائل نصبها الله تعالى لهداية خلقه لتنور نفسه والآفاق من حوله لتنكشف عن موحيات الإيمان وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة ويتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة.

فالليل إذ يستخدم على هذا الوصف هنا إنما ليقابل ما يغشى النفس الإنسانية والفطرة الناصعة من ظلمة الكفر والجهل والذنوب والمعاصي.

● وأما سورة الضحى... فجوها جو الحنان واللطف بالنبي ﷺ فهي (لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود)[77]، وهذا الجو مناسب لحال النبي ﷺ حين فتر عنه الوحي، (واشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾...)[78].

فلما أراد الحق سبحانه أن يبين له حقيقة الوحي بين النزول والفتور، وأن يربط حاله ﷺ بالوحي، اختار له من مشاهد الكون ما يوحي بالحنان واللطف والرواق، إذ (لما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ولهذه الرحمة الوديعة ولهذا اللطف الشفيف، ... جعل الإطار من الضحى الرائق ومن الليل الساجي، أصفى آنين من آونة الليل والنهار، ... الذي يرق ويسكن ويصفو)[79].

وكما أن هذه الحال مرتبطة بهذا الجو في النص، يمكن أن يربط بحاله ﷺ يوم كان صغيرا فهذا الجو من الحنان واللطف (كجو اليتم والعيلة الذي ينكشف مع الضحى الرائق الصافي لتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار)[80]. فنزول الوحي واشتغال النبي ﷺ بعد أيام اليتم والفقر والسكون سبَّبَ له حركة ونشاطا شبيها بحركة الناس والخلائق في وقت الضحى، وفتوره عنه ليس الانقطاع عنه، أو التخلي عنه، بل هو أشبه بسكون الليل الساجي وهدوئه ليأخذ الإنسان فسحة من الزمن يستريح فيها ويتأمل ويستعيد نشاطه، وهذا ما يوحي به قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ فسجى: بمعنى: (سكن وركد ظلامه، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل معناه: سكون الناس والأصوات فيه، وسجا البحر: سكنت موجه)[81]، فكل معانيه تدور حول السكون والهدوء والطمأنينة ليناسب جو الطمأنينة التي يلقيها النص على نفس النبي ﷺ، وليناسب جو السكون والهدوء جو اليتم والعيلة، وما يتغير به من حال إلى حال، بعد نور النبوة، وجمال الوحي، هذا الجو من الحنان والرحمة والرضى الشامل إنما جاء وانسرب كله من خلال النظم اللطيف العبارة الرقيق اللفظ[82].

● وأخيرا سورة الفلق... كان جوها مليئا بظلام المستعاذ منه برب الفلق، والفرق وهو (الصبح، لأن الليل يفلق عنه ويفرق، فعل بمعنى مفعول)[83]. وذلك الظلام آت من شرور الخلق الذين يتخذون الليل ظرفا لشرورهم، وشرور السواحر اللواتي ينفثن في عقدهن ليلا ويرقين ويعقدن[84]. وشر الحساد الذين تنم نفوسهم عن الظلمة والسواد، فجو النص مليء بالظلام وهو أنسب ما يكون ظرفا لكل شر، فلما كان الظلام يلف المعاني المستعاذ منها في النص لا جرم أن جاء وصف الليل بما يتلاءم وهذه الظلمة الدامسة ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فوُصِفَ ههنا بوصفين: الأول: الغاسق، وهو (الليل إذا اعتكر ظلامه... ومنه غسقت العين، إذا امتلأت دمعا، وغسقت الجراحة، امتلأت دما)[85]، فهذا معناه في اللغة، وما أشد قربه مما في النص فالتعبير عنه بـ(اعتكر ظلامه)، يوحي باجتماع الظلمة وحلكتها، والليل مليء بالأحداث المخيفة والشرور فيتلاءم مع ما تمتلئ به النفوس الخبيثة من الشر سحرا أو حسدا أو شرا. والوصف الثاني: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ و(وقوبه: دخول ظلامه في كل شيء)[86]، أي سيطرة ظلامه

واحتكامه على كل شيء يحل فيه، ومعناه في اللغة يدور حول تلك المعاني التي وردت في النص، من استحكام شر الناس وشر السواحر وشر الحسد، قال صاحب القاموس المحيط: (وقب الظلام: دخل، والشمس وَقْباً ووقوبا غابت، والقمر دخل في الكسوف، وأوقب: جاع، والشيء أدخله في الوَقْبة نقرة في الصخرة، والميقب الودعة –قريبة من عمل السواحر–..)[87]. وليس أنسب من هذا الوصف «الغاسق إذا وقب» في مثل هذا الجو المعتم، وليس أنسب من مقابلة «الفلق» له.

هوامش البحث:

(1) ينظر: كتاب الطراز، أبو حمزة العلوي: 562.
(2) أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث: 77.
(3) في النقد والنقد الألسني: 82.
(4) م.ن: 83، وينظر: اللغة والإبداع: شكري عياد: 128.
(5) التعبير القرآني: 237.
(6) درة التنزيل: الإسكافي: 228.
(7) م.ن.
(8) البرهان في توجيه متشابه القرآن: الكرماني: 112.
(9) ملاك التأويل: أبو جعفر ابن الزبير: 298.
(10) م.ن.
(11) ينظر: الآيات: 28، 32، 34، 63، 93، 96، 97، 111، 119.
(12) الفروق اللغوية: العسكري: 153.
(13) ينظر: م.ن: 155–156.
(14) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني: 216.
(15) البرهان في توجيه متشابه القرآن: 112، وينظر: ملاك التأويل: 427.
(16) ينظر: تفسير القاسمي: 504/4.
(17) ينظر: التفسير الميسر: 268.
(18) تفسير القاسمي: 510/4.
(19) ينظر: م.ن: 522/4، والتفسير الميسر 272.
(20) ينظر: تفسير ابن كثير: 2450/4–2451.
(21) ينظر: فتح القدير: الشوكاني: 604/4.
(22) ينظر: درة التنزيل: 228.
(23) تفسير ابن كثير: 2451/4.
(24) ينظر: تفسير القاسمي: 112/4، والتفسير الميسر: 464.
(25) ينظر: تفسير القاسمي: 112/4.

(26) ينظر: دقائق الفروق اللغوية: 217.

(27) ينظر: التفسير الميسر: 47.

(28) النص والأسلوبية: 34، وينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي: 176.

(29) ينظر: الأسلوبية والأسلوب: المسدي: 168.

(30) لسانيات النص: 276.

(31) في النقد والنقد الألسني: 86.

(32) أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث: 77.

(33) اللغة والإبداع: 128.

(34) في النقد والنقد الألسني: 84، وينظر: لسانيات النص: 34.

(35) التفسير الميسر: 274.

(36) ينظر: الكشاف: 2/580، وتفسير القاسمي: 4/533-534.

(37) ينظر: م.ن.

(38) المصطلحات الأربعة في القرآن: المودودي: 14.

(39) تفسير القاسمي: 4/534.

(40) ينظر: الكشاف: 2/583.

(41) تفسير القاسمي: 4/535.

(42) ينظر: م.ن.

(43) ينظر: الآيات 8، 9، 21، 28، 28، 44.

(44) الكشاف: 3/474.

(45) ينظر: نظم الدرر: البقاعي: 5/617.

(46) التفسير الميسر: 407.

(47) ينظر: الكشاف: 3/481، ونظم الدرر: 5/617.

(48) الأمثال في القرآن: ابن القيم: 20-21.

(49) نظم الدرر: 5/122.

(50) التحرير والتنوير: 1/3693.

(51) في ظلال القرآن: 5/3033.

(52) ينظر: المعنى اللغوي: لسان العرب «دين»، معجم مقاييس اللغة: 371، 373، المخصص: 2/195-201، 5/389، 611، وينظر: المعنى الاصطلاحي في المصطلحات الأربعة: 120.

(53) تفسير أبي السعود: 7/253.

(54) ينظر: تفسير ابن كثير: 2/927، وتفسير الظلال: 2/926.

(55) الأمثال من الكتاب والسنة: الترمذي: 40، وينظر: الأمثال في القرآن: 54.
(56) ينظر: نظم الدرر: 431/6.
(57) الأمثال في القرآن الكريم: 54.
(58) نظم الدرر: 443/6.
(59) التحرير والتنوير: 3692/1.
(60) م.ن: 3698/1.
(61) في ظلال القرآن: 28/1.
(62) لمسات بيانية: 87.
(63) الإيضاح في علوم البلاغة: 392، وينظر: الطراز: 330.
(64) لمسات بيانية: 85-86.
(65) م.ن: 83 وما بعدها.
(66) الكشاف: 726/4.
(67) م.ن.
(68) م.ن: 727/4، وينظر: نظم الدرر: 372/8.
(69) تفسري ابن كثير: 3009/4، وهذا واحد من تفسيرات كثيرة وجدته مناسبا لجو السورة.
(70) القاموس المحيط: مادة (وسق)، وينظر: نظم الدرر: 372/8.
(71) ينظر: نظم الدرر: 372/8.
(72) الكشاف: 728/4، القاموس المحيط: مادة (وسق).
(73) القاموس المحيط مادة (وعي).
(74) الكشاف: 729/4.
(75) في ظلال القرآن: 3915/6.
(76) نظم الدرر: 441/8.
(77) ينظر: في ظلال القرآن: 3925/6.
(78) صحيح البخاري بشرح الفتح: 807/4، والحديث برقم (1125)، صحيح مسلم: 801، والحديث برقم (4657).
(79) في ظلال القرآن: 3926/6.
(80) م.ن.
(81) الكشاف: 770/4، القاموس المحيط مادة (سجو).
(82) ينظر: في ظلال القرآن: 3926/6.
(83) الكشاف: 825/4.
(84) ينظر: تفسير ابن كثير: 3127/4.

(85) الكشاف: 825/4.

(86) م.ن: 826/4.

(87) القاموس المحيط: مادة (وقب).

المصادر والمراجع:

1. أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث: توفيق الزبيدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984.
2. الأسلوب والأسلوبية: د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط3.
3. الأمثال في القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية، تحقيق إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، مصر، ط1، 1986م.
4. الأمثال من الكتاب والسنة: أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، ط1، 1985م.
5. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط4، 1998.
6. البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرماني: تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1986.
7. التحرير والتنوير: محمد بن محمد بن الطاهر بن عاشور التونسي، تحقيق د. غانم قدوري، مكتبة دار الأنبار، ط1، 1988م.
8. التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، دار عمار، الأردن، ط5، 2007م.
9. تفسير ابن كثير: الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار السلام، الرياض، ط6، 2004م.
10. تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، محمد بن محمد العمادي أبي السعو، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
11. تفسير القاسمي: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، ط1، 1994م.
12. التفسير الميسر: إعداد نخبة من العلماء، بغداد، اليرموك.
13. درة التنزيل وغرة التأويل: محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1995.
14. دقائق الفروق اللغوية: د.محمد ياس خضر الدوري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2006م.
15. صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2004م.
16. صحيح مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، دار السلام، الرياض، ط2، 2000م.
17. فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الفوائد المنصورة، مصر، ط2، 1997.

18. الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3، 2005م.
19. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط24، 2004.
20. في النقد والنقد الألسني: د. إبراهيم خليل، دار الكندي، عمان الأردن، 2002م.
21. القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 2003م.
22. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي،تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1995.
23. الكشاف عن حقائق التنزيل: أبو القاسم الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، 2001م.
24. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر، بيروت، ط1.
25. لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991م.
26. اللغة ولإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري محمد عياد، مصر، ط1، 1988م.
27. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د. فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك، القاهرة، ط2، 2006م.
28. المخصص: ابن سيدة، تحقيق د. عبد الحميد أحمد يوسف دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005م.
29. المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي، تعريب محمد كاظم سابق، المطبعة الهاشمية، سوريا، دمشق.
30. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، بيروت، لبنان.
31. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2006.
32. النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، مكتبة الأسد، 2000.
33. نظرية البنائية في النقد الأدبي: د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987م.

34. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3، 2006.

